النظرية الخليلية الحديثة

بقلم : عبد الرحمن الحاج صالح

1 - القدامى من النحاة والمتأخرون :

الحائل الذي يمنعنا من فهم المبدعين منهم هو أن نجعلهم طبقة واحدة في قيمة ما قالوه .

إن النظرية الخليلية الحديثة نتجت عن جهود متواصلة وقد بدأت في التفكير فيما يقول الخليل وأنا طالب في الجامعة الأزهرية وبخاصة في كلية اللغة العربية ، وقارنت بين ما اطلعت عليه في كتاب سيبويه آنذاك من أقوال الخليل وما قرأته وكنت أقرؤه على شيوخنا في هذه الجامعة العتيقة ، فلاحظت الفروق الكثيرة التي توجد بين ما ذهب إليه الخليل وشيوخه وتلاميذه وخاصة سيبويه وبين ما يقوله المتأخرون من النحاة بل لاحظت فرقاً كبيراً لا في النزعة العقلية ولا في مناهج التحليل وفي الاتجاه العلمي فقط ، بل في كل شيء ذكروه وأخص بالذكر من المتأخرين هذا الرجل الذي صار ما انتجه من الكتب ومن الأعمال كأنه قرآن النحو ، وهو ابن مالك وهو من المتأخرين وألفيته مشهورة والشروح الكثيرة التي ذاعت ذيوعاً كبيراً في عصرنا الحاضر وربما كان هذا الذيوع وهذه العناية بشروح الألفية هي التي أدت الى تقلص الفكر العربي اللغوي في عصرنا الحاضر والاكتفاء بما يقوله المتأخرون وقد غطى ذلك (وصار حاجباً على أقوال المتقدمين) . هذا ولابد من ملاحظة هامة فإن الخليل ليس هو وحده المسؤول عن كل ما أبدعه عباقرة العلماء الأولين فهناك من عاصره وكان عبقرياً مثله ، ومن جاء بعده

وكان عبقرياً مثله وأذكر من هؤلاء الإمام الشافعي ، فهو في أصول الفقه بمنزلة الخليل في النحو وعلوم اللسان ، فهو الذي وضع الأصول ووضع الأفكار الرئيسية التي اعتمد عليها الناس في أصول الفقه .

ثم إن النزعة العلمية والاتجاه المنهجي الذي نجده عند الخليل وسيبويه ، هو الذي نجده عند الشافعي في أصول الفقه ، فلا أفرد الخليل بهذه العبقرية التي هي عبقرية الاختراع ، وعبقرية الاكتشاف ، والأصالة ، والأصالة كما أفهمها أعني بها أن يكون الشيء أو الإنسان مبدعاً مهما كان عصره أي أن لا يكون نسخة لغيره بالنسبة الى الأفكار التي ينتجها فالأصيل هو من ليس نسخة لغيره مهما كان الزمان وقد تكون أصالة في زمن قديم وقد تكون أصالة في زماننا هذا . وقد يكون الرجل فريداً من نوعه في ميدان خاص أو استعماله لبعض الوسائل العقلية وهذا ينطبق على الخليل : لم يُرَ مِثْلُه قط في استعماله للوسائل العقلية الرياضية في ميدان اللغة .

فالخليل أصيل بهذا المعنى ، لم يأخذ من غيره إلا ما قاله العلماء في النحو والصرف مما أجمع على صحته وزاد على ذلك أشياء كثيرة جداً جداً . وأخشى أن لا تكفي محاضرة واحدة للكلام عن مختلف المواضع التي تطرق إليها الخليل .

وصلنا من الخليل كل ما رواه عنه سيبويه في الكتاب وهو كثير . أحصى الناس أقوال الخليل في الكتاب (أكثر من 600 مرة) وهذا شيء كثيراً جداً ، حتى ذهب البعض الى أن كتاب سيبويه هو كتاب الخليل والحق أنه ليس للخليل فلابد من مراعاة حقوق الناس ، فلسيبويه دور كبير في ابداع التصورات العلمية ومهارة عجيبة مثل مهارة الخليل أحياناً كثيرة في تفسير الظواهر اللغوية وعبقريته تكمن أولاً : في تفهم ما قاله الخليل وما قاله زملاء الخليل مثل يونس وغيره من النحاة القدماء وله دور أيضاً في توسيع ما قاله الخليل وتبسيطه والإضافة الكثيرة الى ذلك وقد يخالف الخليل - وهذا قليل

جداً ، ففي غالب الأمر يتفق معه واذا خالفه فيكون له الحق وقد يكون للخليل أيضاً الحق في نفس الموضوع لأن وجهتي النظر قد تختلفان ، أذكر من ذلك قول الخليل أن بعض الكلمات هي في الحقيقة ناتجة عن تلاصق بعض الكلمات الأخرى وذلك مثل (لن) ، يقول الخليل إن «لن» أصلها : لا + أن وبكثرة الاستعمال صارتا كلمة واحدة ويخالفه سيبويه بقوله أن «لن» ليست مشتقة فهي جامدة ولذلك فلا علاقة لها «بلا» و«أن» وأنها كلمة قائمة بذاتها ، وهو مصيب من الناحية البنوية أي من حيث النظام اللغوي فإن لن عنصر قائم بذاته وهو يدخل في مجال مفهومي خاص وهو مجال الأدوات التي تدخل على الفعل . فالجدول التفريعي للفعل المضارع تظهر فيه على اليمين أدوات تدخل على الفعل في مواضع خاصة وتتقابل هذه الأدوات بعضها ببعض للقيام بوظيفة معينة لفظية ومعنوية .

«فلن» تقع في موضع من المواضع التي توجد في هذه البنية التي تسمى نظام الفعل المضارع . لكن الخليل مصيب أيضاً من وجهة نظر غير هذه ، فهو ينظر الى تطور اللغة وهي وجهة نظر تاريخية ، فصحيح أن «لا» و«أن» بكثرة الاستعمال أي بكثرة ما اقترنت هذه بتلك صارتا مع مرور الزمان كلمة واحدة تؤدي وظيفة لفظية ومعنوية خاصة لأن أن في الغالب تدل على شيء بالنسبة الى ما تدخل عليه من الأفعال ، لم يحصل في الحال وفيما مضى فهي تخصص الفعل للمستقبل ، واذا دخلت على الفعل نصبته ، والنصب هنا علامة على أن الحدث لم يقع بعد ، فاذا زاد النفي على ذلك كان نفياً للمستقبل .

هذا مثال واحد فقط والخليل يجب أن يقرأ ما قاله قراءة جديدة ، وهذا الذي حاولت أن أفعله ، ولكن القراءة الجديدة لا تنفع إذا لم يكن صاحبها ملّما باللسانيات الحديثة أولاً ، وأن يكون ملّما بكل ما قيل في زماننا هذا عن اللغة وبنيتها ومن مسار اكتساب اللغة وعن تطور اللغة وعن وظائف اللغة وغير ذلك من النظريات الحديثة ، وأن يكون متحصلاً زيادة على ذلك على

ثقافة منطقية رياضية واسعة من تلك التي تجعل من منطق أرسطو جزءاً صغيراً فقط من منطق الرياضيات الحديثة .

2 - النحو العربي الأصيل ومنطق الرياضيات :

فما العلاقة بين النحو والمنطق ؟ وما العلاقة بين النحو والرياضيات ؟ ما لهذا بتلك النزعة المنطقية التي كثيراً ما نسمع ونقرأ اليوم أنها شيء بعيد عن النحو وصحيح أن اللغة شيء والمنطق شيء آخر .

فهذا صحيح لاغبار فيه ، ولكن من يقرأ ما قاله الخليل في كتاب سيبويه ، ثم ما وضعه من قواعد الشعر أي العروض وأيضاً ما وضعه من النظام التركيبي للغة الذي بنيت عليه المعاجم التي ألفها الناس بعد الخليل فسرعان ما يقتنع بنزعة الخليل الرياضية في جميع ما يضعه من التحليلات والنظريات .

فهذا كتاب العين وقد وصلنا - نحمد الله على ذلك - وفيه مقدمة طيبة ليست للخليل بلاشك لكن فكرة الخليل سائدة فيها وفي جميع هذا الكتاب .

وهذه دوائر العروض والدائرة التي يمثل بها الخليل قسمة التراكيب للحروف الصوامت المنتجة للجذور والقسمة المنتجة للصيغ ثم المصفوفة المنتجة للكلم لما يسمى الآن في الرياضيات Combinatoire أو Algèbre Combinatoire وهذا هو (أظن) مفتاح القراءة الجديدة التي ينبغي أن تقرأ بها أقوال الخليل التي وصلتنا فإن قسمة التراكيب غير القسمة الأفلاطونية الأرسطوليسة ولهذا فمنطق الخليل هو أقرب منطق الى ما وضعه الرياضيون في زماننا هذا في أحدث صوره .

ولا ننس أن مفهوم القياس كمفهوم منطقي رياضي ظهر الى الوجود في زمان الخليل . وهذا الذي يسمى الآن قياساً وقع فيه تخليط إذ يلتبس على أذهان الناس أن القياس هو لأرسطو وهو ما يسمى بسيلوجسموس وهيهات أن يكون الأمر هكذا .

فالقياس كما يحدده الأصوليون هو حمل شيء على شيء لجامع بينهما ، وحمل شيء في الحكم ، وهذا الحمل هو الذي يسمى في وقتنا الحاضر في المنطق الرياضي بتطبيق النظير على النظير أو تطبيق مجموعة على مجموعة حتى يظهر تطابق في البنية بين مجموعتين على الأقل . فهذه لغة الرياضيات الحديثة كما عرّبت . هذا وان هناك أشياء كثيرة تدل الدليل القاطع على أن أول كتاب في الجبر ظهر عند المسلمين هو كتاب الخوارزمي ، وبين الخوارزمي ووفاة سيبويه 25 سنة تقريباً ومن قرأ هذا الكتاب واسمه الكامل كتاب الجبر والمقابلة يلاحظ أن الكثير من المصطلحات الجبرية التي يستعملها هي مصطلحات تكثر على ألسنة النحاة مثل كلمة باب ، ولا اعتقد أن الكثير من الناس يفهم في زماننا هذا ما تدل عليه هذه الكلمة .

فالكثير ، قلت من المصطلحات التي توجد عند سيبويه نجدها في كتاب الجبر والمقابلة . ففي بداية الكتاب يقول سيبويه : «ما الكلم من العربية . الكلم إسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس بإسم ولا فعل» وقال الخوارزمي : «جذور وأموال وعدد مفرد لا ينسب الى جذر ولا مال وليس بإسم ولا فعل» (ص16 – 17) .

وقد غلط المتأخرون إذ وقفوا في وسط الجملة ولم ينته الكلام فإنهم تعودوا أن يقفوا عند كلمة حرف . فيقولون : «الكلام إسم وفعل وحرف (وسيبويه لم يقل الكلام بل قال الكلم ، وفرق بين الكلام والكلم) . وكلام سيبويه «الكلم إسم وفعل جاء لمعنى ليس بإسم ولا فعل» هو كلام واحد فأرادوا الاختصار فشوهوا كلام سيبويه وخصصوا كلمة حرف لهذه الأداة التي ليست بإسم ولا فعل مع أن سيبويه قال «حرف جاء لمعنى» . ويقول في مواضع أخرى من كتابه «هذا حرف من نفس الحرف» . فماذا يعني بكلمة حرف ؟ الواقع أنه يعني بذلك ما نسميه في عصرنا الحاضر العنصر ولهذا احتاج الى أن يقول أن الكلم وهي الحروف أي الوحدات الدالة إسم وفعل ، وحرف آخر زيادة على

هذين الحرفين (أي العنصرين) وهي التي تتركب منها اللغة العربية فهي الإسم والفعل وشيء ثالث وهو ما يسمى بالمورفيم ، وهو عنصر جاء لمعنى ويعني بالمعنى هنا المعنى الذي لا يدل عليه الإسم والفعل بل المعنى الذي تدل عليه الأداة ، وهو معنى إضافي بالنسبة للإسم والفعل . فهذه القراءة مع الأسف لا يستطيع الباحث أن يقرأها إلا اذا كان مزوداً بمعلومات يستمدها أولاً من شروح الكتاب ومعلومات خارجة عن النحو وهذه المعلومات ترجع الى الثقافة العلمية الحديثة من جهة والى التعمق في معاني المصطلحات التي استعملها العلماء القدامى لا في اللغة فقط بل في جميع العلوم التي كانوا يتعاطون البحث فيها بما فيها الفلسفة والعلوم الدقيقة .

ولم يكن ذلك مجرد اسقاط بل كانت هذه المعلومات بالنسبة لي عوناً على فهم ما ذهب إليه الخليل وسيبويه والكثير من التفاسير ومن التوضيحات والتعليلات التي يلجأ إليها هذان الرجلان العبقريان ، لا يستطيع الباحث أن يفهمها إلا اذا أيقن أنها تعتمد في الشيء الكثير على مفاهيم منطقية رياضية بالمفهوم الحديث .

فقد سبق أن قلنا أن الباب عند هؤلاء النحاة الأولين هو المجموعة في الرياضيات فالباب الذي ليس فيه عنصر أي المجموعة الخالية كما يقول المعاصرون ، هو المهمل عند الخليل يعني الشيء الذي يقتضيه القياس ولم يأت في الاستعمال . وقد يحتوي الباب على عنصر واحد وذلك مثل «شنئي» نسبة الى «شنؤة» .

فاللغة نظام جامع يُجْعل تحت تصرُّف المستعملين لها : نظام من الأصوات ، من الدوال أي من أفعال وأسماء ، ومن تراكيب ، فيستقي منها المستعمل ما يحتاج إليه للتعبير عن أغراضه ، لكن في وقت من الأوقات رفض الناطقون أن يستعملوا هذا الذي تجيزه اللغة فامتنعوا من ذلك . ولهذا لابد من التمييز المطلق بين ما هو راجع الى القياس ، الى المنطق ، الى قسمة

التراكيب وهذا مجال خاص له قوانينه وبين ما هو استعمال ، أي إجراء اللغة في حال خطابية معينة وهذا مجال آخر له قوانينه ، فقوانين الاستعمال غير قوانين النحو والقياس ، وقد وقع تخليط أولاً عند النحاة المتآخرين ، خلطوا بين قوانين الاستعمال وقوانين القياس فالتبس عليهم الأمر ، وما تفطنوا الى ما يقوله ابن جني في هذا الميدان (وهو من المدرسة الخليلية) .

وهذا قوس أفتحه هنا : فهناك بعض العباقرة كانوا شواذ في زمانهم أمثال عبد القاهر الجرجاني (هو نحوي قبل أن يكون بلاغياً) ، ولولا معرفته بالنظرية الخليلية لما استطاع أن ينظّر البلاغة بهذه الكيفية العجيبة ثم هناك الرضى فهو أيضاً شاذ في زمانه . فالبلاغة هي في الحقيقة امتداد للنحو بالنسبة للاستعمال فهي استثمار للذخيرة النحوية الصرفية في حالات خطابية ملموسة وعلم البلاغة يبين لنا كيف نوظف وكيف نختار من هذا الذي تجعله اللغة تحت تصرفنا ويجعلنا نتساءل في كل حال خطابية ماذا يليق بهذا المقام (أي بهذه الحال الخطابية ، وبالنسبة الى الذين أخاطبهم) من الأصوات ومن المفردات ومن التراكيب حتى أؤدي غرضي في أحسن الأحوال .

3 - وعلى هذا فالبلاغة ما هي ؟:

هي علم التبليغ الفعال ، علم التبليغ الذي يكون له نجاعة أي تأثير في مشاعر المخاطب أو عقله أو مجرد نجاعة بيانية بحسب مقتضى الحال . فكيفية استعمال اللغة شيء وبنية اللغة في ذاتها شيء آخر وتفسير هذا بهذا يؤدي الى مآزق ، فلكل منهما ميدان خاص فهناك اللغة وهي من حيث دلالة ألفاظها اعتباطية وليست منطقية ولا عقلية ولا شيء من هذا يوجد بين الدال والمدلول أما في حال الخطاب أي عند الاستعمال الفعلي للغة فقد تدل الألفاظ على معنى وليس هو المراد وذلك مثل عبارة الخنساء (طويل النجاد) فللنجاد معنى وضعي وهو غمد السيف وليس هو المقصود ههنا إنما المقصود من طويل

النجاد هو طويل القامة فالعلاقة بين طويل النجاد وطويل القامة علاقة عقلية وليست علاقة اعتباطية وهذا ما تبين للنحاة أولاً ثم أوضحه الجرجاني بكيفية رائعة ومع ذلك فمازال الباحثون تلتبس عليهم الأمور الى الآن ويجعلون ما يرجع الى النحو في ذاته بمنزلة ما يرجع الى استعمال النحو واللغة . وفي اللسانيات الحديثة ، كل ما يخص الجانب الاستعمالي فيخضع عند اللسانيين لقوانين خاصة يتحكم فيه منطق التخاطب ومنطق التخاطب غير المنطق الصوري بل هو المنطق الطبيعي الذي بنى الناس عليه معاملاتهم اليومية وبالتالي استعمالهم للغة بما تقتضيه علاقاتهم الاجتماعية فالاستعمال متأثر بالعرف وبالعادات وبكل ما هو اجتماع فاللغة اجتماعية في تكونها وفي كيفية استعمالها . ونريد بذلك أن تفسير صيغة الكلمة أو صيغة الجملة اعتماداً على معناها الوضعي أو المقصود هو خطأ منهجي لأن للفظ وصيغته أكثر من معنى واحد . **إنما يفسّر اختيار لفظ معين في تأدية غرض معين في حال خطاب معينة** وليس المعنى وحده - حتى في هذه الصورة - يفسر وجود لفظين معين . **فما هو راجع الى اللفظ له قوانينه الخاصة به غير قوانين استعمال اللفظ** . فدراسة هذا **الجانب الاستعمالي** للغة هو الذي يسميه الأوروبيون الآن براغماتيك (Pragmatique) . وأصبح الآن الكثير من اللسانيين الغربيين ومقلديهم من العرب لا يعرفون إلا البراغماتيك بل حصروا كل اللسانيات في هذا الجانب الاستعمالي مقتنعين في ذلك بأن بنية اللغة تفسرها المعاني المقصودة في الخطاب وهذا خلط فظيع بين ما هو لفظ له بنية قائمة بذاتها كما قلنا وبين اختيار هذا اللفظ في حال خطابية معينة . والسبب يكمن في وقوع نوع من الكلل إزاء البحوث الصورية في ذاتها والنفور من دراستها على حدة أي بعيداً عن كيفية استعمال الناطقين بها . وأكثر اللغويين الغربيين المحدثين مولعون بالبراغماتيك ، أي دراسة استعمال اللغة ، وقوانين استعمال اللغة اجتماعية أصالة وللبنى اللغوية جانب آخر غير اجتماعي وهو

ميدان صوري ، وهذا مع الأسف لم ينتبه إليه الكثير من الناس وفيما يخص النحو في حد ذاته فيقولون بأن البنية قُتِلت بحثاً في اللسانيات الحديثة وليس على ذلك من مزيد ، وهذا غلط فاضح .

4 - النحو التوليدي والتحويلي :

لقد كان لي حظ كبير بأن التقيت بصاحب هذه المدرسة العلمية منذ زمان بعيد في صيف 1966 بلوس أنجلس بأمريكا ، كنت نزلت ضيفاً على بعض الجامعات الأمريكية بصفتي عميدا لكلية الآداب بالجزائر فجرى حديثنا في أصول هذه النظرية التحويلية التي وضعها هذا الباحث الأمريكي ثم بعد ذلك بسبع عشرة سنة اتصل بتشومسكي أحد طلابي السوريين ممن درس علي في دمشق في السبعينات فألقى عليه نفس السؤال الذي كنت ألقيته عليه وهو هل أخذت هذه الأفكار من النحو العبري أو النحو العربي ؟ (والنحو العبري هذا هو نسخة للنحو العربي كما أن النحو السرياني كذلك) ، فأجابه بالسلب وقال بأنني لم آخذ هذا من النحو العربي ولكن درست الأجرومية على أستاذي روزنتال فهو ليس غريباً عن النحو العربي ، وإن لم يقرّ بأنه أخذ شيئاً من النحو العربي .

5 - النحو والصياغة الخاصة ببنى اللغة : مثل الكلم :

كيف يا ترى استطاع الخليل وغيره من العلماء أن يستنبطوا البنى التي تصاغ عليها الكلم ؟ ومن أين لهم هذا ؟

إن المنطق الأرسطي لا يمكن أن يساعد الباحث اللغوي في ذلك إطلاقاً لأنه بنى على اندراج شيء في شيء وليس على حمل شيء على شيء .

فالعلاقة التي تسمى بالفرنسية (Relations intensives) (العلاقات الانتمائية في المنطق الحديث) هي علاقة تداخل بين مجموعتين أو علاقة إندراج مجموعة في

أخرى أو علاقة تقاطع أو علاقة مطابقة وهذا جزء بسيط من المنطق وليس كافياً أبداً لأنه لا يستفرغ كل أنواع العلاقات المنطقية التي يمكن أن توجد بين عناصر البنية وخاصة العلاقات الحملية (Relations extensives) التي عرفها العلماء العرب .

تفطن النحاة العرب منذ عهد قديم الى أن الكلمة المتصرفة تتكون من مادة حرفية أصيلة ومن صيغة تكون بمنزلة قالب تصب فيها المادة الأصلية وهذا تحليل مخالف تماماً للتحليل المعروف اليوم المبنى على التقطيع المتسلسل للكلام كأن اللغات البشرية كلها متكونة من دوال متقطعة ليس غير . ومحاولة تطبيق ذلك على العربية هو إسقاط محض وتعسف وهو حاصل كثير مع الأسف .

إلا أن الشعور بوجود عنصرين مجردين تتكون منهما الكلمة المتصرفة غير كاف ولذلك حاول النحاة الأولون أن يمثلوا هذين العنصرين بمثال أي برسم رياضي يبرزون فيه المكونات الأساسية لكل عنصر الأصلية منها والزوائد فجعلوا الأصلي متغيرات ورمزوا إليها بحروف الفاء والعين واللام بالنسبة للثلاثي فالفاء تشير الى أي حرف من الصوامت العربية في المرتبة الأولى والعين كذلك لكن في المرتبة الثانية واللام في المرتبة الثالثة . وعلى هذا الأساس الرياضي يمكن أن تجري عمليات تحويلية دقيقة مثل العمليات الرياضية وهي التصاريف التي تجري على المادة الواحدة بشتى الأوزان أي المثل (جمع مثال) وما يقتضي ذلك من الحذف والقلب والإدغام والإعلال وغير ذلك من العمليات التحويلية .

والجدير بالذكر أن مفهوم البناء أو الوزن وإن كان مأنوساً عند العرب ومعروفاً عند المستشرقين فانه شيء تجهله تماماً اللسانيات الغربية الحديثة لاقتناع أصحابها بأن الوحدة الدالة هي بالضرورة قطعة ملفوظة بالفعل ما عدا النبرة . ولهذا يحاولون دائماً الكشف عن الدوال بالتقطيع واستبدال قطعة

بأخرى . وهذا ينطبق على الكلم العربية ككلم إلا أن الكلمة العربية المتصرفة هي نفسها متكونة من عناصر أصغر منها تدل كل واحدة منها على معنى على حدة ، وهي عناصر مجردة غير متقطعة .

أما كيفية اكتشاف البناء أو المثال فهذا يتم أيضاً بكيفية رياضية لا تعرفه اللسانيات الحديثة والطريقة في ذلك هو ما أشرنا إليه من حمل الكلم بعضها على بعض إذا كانت تنتمي الى جنس واحد . وهذا عمل رياضي يسمى الآن بتطبيق النظير على النظير Bijection وبذلك تبرز البنية التي تجمع كل هذه الكلمات المحمولة بعضها على بعض .

ويذهب النحاة الى أبعد من هذا إذ يحملون بناء على بناء كحملهم صيغة منتهى الجموع : مفاعل على تصغير الرباعي وقد اكتشفوا بذلك بنية أكثر تجريداً وبينوا بذلك القرابة البنوية بين هذين الجنسين من الصيغ .

والذي يجهله معاصرونا هو المثال أي الصيغة التي تعود الناس على العثور عليها في مستوى الكم فقط له أيضاً نظير في مستوى التراكيب فقد حملوا الجمل بعضها على بعض فاكتشفوا أن كل الجمل العربية تتكون من عنصر يتحكم في جميع العناصر الأخرى فسموه العامل وأن له معمولين أساسيين ولا يجوز أبداً أن يتقدم المعمول الأول (الذي لا يستغنى عنه) على عامله . ثم برعوا في أن بينوا للناس أن العامل والمعمولين الأول والثاني قد يكون محتوى كل واحد منها كلمة واحدة أو أكثر وقد يكون مساوياً لصفر ويقال حينئذ أن موضعه فارغ . وما يسمى بالابتداء فهو صفة موضع العامل إذا كان فارغاً .

أما في مستوى المثال المولّد للكلم فان الخليل برع أيضاً في استعماله للمفاهيم الرياضية العميقة فقد رسم دائرة – كما قلنا – تمثل كل التراكيب الممكنة للحروف الأصلية وللدائرة اتجاهان اثنان فبالنسبة للثلاثي فتراكيبه الممكنة 6 وللرباعي 24 تركيباً نظرياً وهكذا وقد اعتمد الخليل على قواعد رياضية تذكر الآن في ميدان يسمى بالجبر التركيبي . أما فيما يخص قسمة تراكيب

الأصل بمختلف الأبنية فرسم الخليل جدولاً يسمى الآن مصفوفة ويقع فيها ما يسمى بالجداء الديكارتي . وفي كل هذه المحاولات (الموفقة كلها) نجد شيئاً مهماً جداً بل هو أساس التحليل وهو أن جميع العمليات التي ذكرناها تطرد وتنعكس ومعنى ذلك أن كل عملية لها ضدها وهي التي ترجع الفرع الى الأصل (التناظر Symétrie) ، فهذا شيء جوهري في التحليل .

وفي كل المستويات من اللغة يوجد مثال أو أكثر من مثال تتفرع عليه الفروع والمجموعة من العمليات الحملية التي يتم بها استنباط البنية الجامعة – وهي المثال – فنسميه في اصطلاحنا بالمثال المولّد وبما أنه يحتوي على جنس من العمليات المعينة وفيه عنصر محايد وهي العملية المنعدمة (صفر) وتنعكس فيه كل العمليات وفيها صفة الاشتراك فكل هذه الصفات تجعل المثال المولد زُمْرة (Groupe) . وهذا دليل قاطع على تفوق اللسانيات الخليلية على جميع النظريات اللسانية القديمة والحديثة إذ لا يوجد ذلك في أي نظرية أخرى ونستثني من ذلك النحو التحويلي الى حد ما (لا النحو التوليدي لأنه لا يعرف التناظر) . وقد أطلت الكلام عن هذا في كتابي «اللسانيات العربية واللسانيات العامة» وفي الكثير من البحوث التي نشرتها فليرجع إليها من يشاء .

في هذا أيضاً تفارق اللسانيات الخليلية البنوية الحديثة والوظيفية لأنهم يبنون كل شيء على التمايز بالصفات المميزة ، والخليل يبنى كل شيء على الأبنية المستنبطة من حمل الشيء على شيء فهي وجهة نظر أخرى . فالاكتفاء بالصفات المميزة (Traits pertinents) لتحديد البنية غير كاف أبداً ، ولابد زيادة على ذلك ، أن تستنبط العلاقة البنوية الحقيقية لا الوظيفية (في أول الأمر) التي توجد بين العناصر التي تدخل في باب واحد ، والقياس على النظائر فالنظير يلعب دوراً كبيراً كما رأينا في منطق النحو الخليلي وقسمة التراكيب وهو ما يسمى الآن (Combinatoire) كما قلنا . هذا وقد أساء الفهم بعض

من جاء بعد سيبويه وأولهم هو الأخفش تلميذ سيبويه . وتابعه على ذلك تلميذاه الجرمي والمازني وأخطأ الغرض كثيراً جداً صاحبها المبرد ، ولذلك خطأ المبرد سيبويه في الكثير من كلامه لعدم فهمه له في هذه المواضع (وقد رد عليه ابن وَلاَّد رَدًّا رائعاً) .

فالأخفش هو المصدر البعيد لكل من خرج عن كلام الخليل مثل المبرد ومثل من جاء بعدهم فالأخفش لم يدرك كل ما قاله سيبويه . ففي الدورة الأخيرة لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ألقيت بحثاً عنوانه («أقائم أخواك» وطريقة تفسيره عند سيبويه والرضى الاسترابادي) . أردت أن أبيّن أن مفهوم الموضع هو مفهوم هام جداً ولا يوجد إطلاقاً في اللسانيات الغربية ، فاذا قلنا «أقائم أخواك» ، فإن إعرابه عند المتأخرين خاصة: هو «قائم» مبتدأ ليس له خبر يقول الأخفش أنه سد مسده الفاعل وهو «أخواك» (فاعل للصفة التي هي هنا اسم الفاعل) ، لم يقل هذا سيبويه إنما هو اجتهاد ، والمجتهد يخطئ ويصيب ، وقد أخطأ الفهم ههنا خاصة فاذا رجعنا الى مفهوم الموضع فهمنا جيداً ما قاله سيبويه ، واللغوي الوحيد الذي فهم ذلك هو الرضى – خليل عصره حقيقة (وقلّ من يفهم كلامه ، خصوصاً ما جاء في شرحه للكافية فهو من أعمق ما كتبه علماؤنا) . ففيما يخص «أقائم أخواك» . أقائم : إسم فاعل يعمل عمل فعله . إذن يجب أن يكون في موضع الفعل ، فهو ليس مبتدأ بمعنى الإسم الذي يحتاج الى خبر فالذي غلط الأخفش أن سيبويه أحياناً لا يبالي في استعمال نفس المصطلحات فقال في موضع مبتدأ ، ولكن سرعان ما صوب ذلك فقال في موضع ابتداء .

وموضع الإبتداء ليس موضع المبتدأ ، فالإسم الذي يعمل عمل الفعل يكون موضع الإبتداء . والمبتدأ هنا بمعنى المستقل عما قبله ، وابتداء الشيء بمعنى أبدعه ، أي جعله مستقلاً عما قبله ، كذلك في الكلام ، المبتدأ هو العنصر الذي يأتي في موضع لا يؤثر فيه ما قبله أو يكون ما قبله موضعاً فارغاً ،

وهذا الموضع الفارغ فهو الذي يستطيع أن يملأه العامل . فنظرية العامل خلافاً لما يقول أكثر الناس في زماننا هذا ، هي أقرب نظرية الى الصواب ولجأ الى هذا المفهوم أيضاً تشومسكي نفسه .

والدليل على أن هذا المفهوم ، مفهوم العامل وهو الـ Government الذي يستعمله تشومسكي أن هذه الكلمة مرادفة لكلمة Rection وكلمة Rection جاءت من كلمة لاتينية هي Regere وأول مرة ظهرت في كتب النحو باللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي عند PETRUS HELIAS (بطرس هلياس) النحوي الفرنسي الذي استعمل لأول مرة مفهوم العامل ، فاستنتجت أن هذا المفهوم أخذه الأوروبيون من العلماء العرب إذ لا أثر له في التراث اللاتيني اليوناني .

هذا وقد ترجمت كتب نحوية في ذلك الزمان في حلقة أكس فورد في زمان روجر باكن (وكان يعرف العربية) ، وترجم الكثير من الكتب العلمية لابن الهيثم وابن سينا وبعض الكتب الأخرى .

فكل هذا دليل على أن «أقائم» لا يحتاج الى خبر لأنه ليس مبتدأ بالمعنى المعروف انما هو إسم قام مقام فعل وجاء في موضعه ، وأقطع دليل على أنه في موضع فعل أنه يحتاج الى علامة تدل على أنه في موضع فعل وليس باسم مجرد والدليل على ذلك وجوب زيادة إما النفي أو أداة استفهام .

فلا يقال «قائم زيدان» فهذا لا يجوز في العربية بل «أقائم الزيدان» ، أو «ما قائم الزيدان» . أما «قائم زيد» فهذا عربي ولكن بتقدير القلب (التقديم والتأخير) . فالعامل يأتي في موضع يدخل فيه الفعل وهو الأصل ، ويدخل فيما يقوم مقام الفعل من الأسماء - ويدخل فيه بعض الأدوات التي تعمل عمل الفعل كإن وأخواتها وكان وأخواتها .

لولا هذه المفاهيم المنطقية الرياضية لا أعتقد أن سيبويه والخليل وغيرهما كان يمكنهم أن يصلوا الى مثل ما وصلوا إليه من التحليلات والتحليلات الرائعة . وكل ذلك هو الآن موضع دراسة .

التقليد وإسقاط الأفكار المسبقة على ما قاله النحاة الأولون :

إن ما قلته عن اللسانيات الغربية الحديثة ليس هو استهانة بقيمتها في ذاتها وكل ما جلبته من منافع . فكل باحث نزيه يعترف بفضلها الكبير وخاصة في تمييزها الحاسم بين ما هو علم للظواهر اللغوية فيجب أن يكون موضوعياً يصف صاحبه الظواهر كما هي لا كما يريد أن تكون وبين ما هو نحو معياري محض يتخير صاحبه فيه ما يفضله من التعابير . ومع هذا فيجب أن نمحص هذا الذي يقوله اللسانيون كالمعيار نفسه فان كان التمييز السابق صحيحاً فان المعيار اللغوي هو أيضاً ظاهرة والدليل على ذلك أننا لم نعثر بعد على لغة ليس لها معيار وعلى هذا يجب ألا نهدر هذه الظاهرة ونحاول أن نفسر كيف ولماذا يخضع لها الناطقون ، فالتقليد إذن فيه مضرة كبيرة .

ثم التخليط بين اللغة كبنية واستعمالها في حالات ملموسة (وهذا عند الوظفيين) هو أيضاً آفة وكارثة . فان كان كتاب سيبويه غير خال من الاعتبارات البلاغية فليس معناه أنه يجعل التحليل لبنية اللغة هو التحليل لوظيفتها التبليغية فسيبويه يلجأ الى هذه الوظيفة كلما خرج من التفسير للبنية اللفظية وكيفية مطابقتها للقياس أو مخالفتها له الى التفسير لكيفية استعمال هذه البنية وخروج هذا الاستعمال عن المعنى الموضوعي للفظ (وكثيراً ما يذكر هذا الخروج اذا صار عُرْفاً ويسميه «سَعة الكلام» . كما يذكر العبارات الجامدة ويسميها «ما يجري مَجْرى المثل» . أما تفسير مثل بناء إسم لا النافية على الفتح فيحمل ذلك على سلسلة من الأبنية يبين فيها قرابتها بالنسبة الى هذه الظاهرة فيبني استدلاله على سلسلة من المتكافئات ولا يلجأ فيها أبداً الى البلاغة ولا الى علم المعاني .

ولا بد ، في الخلاصة من أن يدرك الباحث هذا الذي قلته : فضرورة معرفة اللغوي بما أتت به اللسانيات الحديثة في مختلف نظرياتها وأحدث صورها وضرورة الإلمام بالرياضيات الحديثة والمنطق القديم والحديث لا

يستلزم أن يسقط كل هذا على نص كتاب سيبويه وغيره من كتب القدامى من النحاة . فأما معرفة النظريات الحديثة فمن أجل المقارنة وإثبات الاختلافات والتنبيه عل المشابهة السطحية وأخيراً إثبات الفضائل والنقائص لكل منها . أما معرفة المنطق والرياضيات فلأنه ليس من علم تجريبي واستدلالي إلا وليلجأ إليها كأداة وكوسيلة منهجية . فالرياضيات ليست نظريات بل هي حقائق فلا يمكن ردها وفي نفس الوقت تصلح لأن تكون إطاراً صورياً فعالاً للتحليل وبناء النظريات بكيفية دقيقة لأن الرياضيات والمنطق الرياضي يصف العلاقات التي يمكن أن ترتبط بها العناصر في البنية التي تندمج فيها . والصياغة الرياضية للنظريات العلمية تزيل عنها الأشياء المبهمة الغامضة غير المحددة فتجعلها كنظام متكامل متماسك الأجزاء لا يدخل فيه شيء إلا بمبرر عقلي .

فالإسقاط هو إسقاط رأي أو وجهة نظر أو فكرة سابقة أو تصور سابق على نظام فكري أو نظرية علمية لا تمت بسبب لما أسقط عليها .

عبد الرحمن الحاج صالح